مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264Issn : 2353-0499
المجلد 10/العدد: 2 (2022)، ص: 561-571

الإبستمولوجية الفوضوية عند بول فيرابند والتفسير اللاعقلاني لتطور العلم

The anarchic epistemology of Paul Feyerabend and the irrational interpretation of the development of science

ط.د بوعلام الزهرة [1]
[1]جامعة ابن خلدون –تيارت-الجزائر
zohra.boualem@ univ-tiaret.dz

تاريخ الاستلام: 2022/03/16 تاريخ القبول: 2022/03/27 تاريخ النشر: 2022/05/10

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على التحليل الذي قدمه "بول فيرابند" لتطور العلم، من خلال نظريته الفوضوية الإبستمولوجية التي تعتبر من المواقف الأكثر جرأة وتميزا في فلسفة العلم المعاصرة، ويكمن ذلك في أنه نقل مجال البحث من التساؤل عن المنهج الأكثر فعالية والأكثر دقة وموضوعية إلى التساؤل عما إذا كان هناك حقا منهجا كليا ثابتا يتوجب إتباعه والإلتزام بقواعده لفهم ودراسة هذا الواقع العلمي المعقد، وقد حاول من خلال مقاربته هذه ليبرز موقفه المناهض للعقلانية العلمية الكلاسيكية القائمة على القواعد والمعايير والمنهج الثابت، فالعلم عند "فيرابند" في جوهره مشروع فوضوي لا يعترف بأية سلطة تحد من نشاطه فكلالنظريات وكل المناهج فيه مقبولة تبعا لشعاره المشهور "كل شيء حسن" لذا تكمن أهمية مقاربته في كونها فتحت أفاقا واستبصارات جديدة في فلسفة العلم المعاصر.

كلمات مفتاحية: الفوضوية الإبستيمولوجية، التعددية المنهجية، اللامقايسة.

Abstract:

This study aims to shed light on the analysis presented by "Paul Feriende" of the development of science through his esoteric anarchy theory, which is considered one of the most daring and distinguished positions in contemporary philosophy of science, and this lies in the fact that he moved the field of research from the question of the most effective and most accurate method and Objectivity to the question whether there is really a holistic and fixed method that must be followed and adhered to its rules to understand and study this complex scientific reality, and he has tried through this approach to highlight his position against classical scientific rationality based on rules, standards and fixed method, for science is with Feyerand in its essence. A chaotic project that does not recognize any authority that limits its activity. All theories and all methods are accepted according to its famous slogan, "Everything is good." Therefore, the importance of its approach lies in the fact that it opened new horizons and insights. Philosophy of contemporary science.

Keywords: stylistic anarchism, methodological pluralism, asymmetry.

المؤلف المرسل: بوعلام الزهرة

1. مقدمة:

لقد مثل القرن السابع عشر قرن الإستفاقة المنهجية،ويرجع ذلك إلى ظهور الحركة الفكرية في فلسفة العلم المعاصرة، وما طرحته من تساؤلات حول طبيعة العلم وآليات عمله، وطبيعة المناهج وكذا مشروعية النتائج المتوصل إليها ففتحت إمكانية للشك في قيمة هذا المنهج، ومن جهة أخرى فإن الثورات العلمية المتتالية التي شهدها القرن العشرين في

مجال الفيزياء المتمثلة في نظرية النسبية الخاصة والعامة للعالم الألماني "ألبرت أنشتاين" (1955-1997) والتي صاغت قوانين أعم وأشمل للظواهر بدلت صورة الكون التي ارتسمت في أذهان الناس منذ 200 عام، والنظرية الكوانطية "ليماكس بلانك" (1947-1958) التي مثلت مرحلة إبداعات علمية جديدة تسارعت معها معدلات تقدم العلم بصورة غير مسبوقة فاقت كل التوقع، وظهور الهندسات اللا إقليدية التي طرحت وأثارت مشكلة الأسس ومراجعة مبادئ الإستدلال الرياضي ونقدها، كل هذه الثورات العلمية التي عرفها القرن العشرين، شكلت منعطفا حاسما في الفكر العلمي تراجعت بموجبه الكثير من اليقينيات والمطلقات العلمية، وأحدثت كذلك هزة عميقة في مجمل البنية المعرفية للعلوم الطبيعية، حيث زعزعت كل المبادئ والأسس النظرية وحتى المنهجية التي قام عليها العلم الكلاسيكي، وجعلت المنهج العلمي عرضة للمراجعة النقدية بسبب النزاعات التي اعترضت سبيله-مشكلة الإستقراء- حيث يعتبر "دافيد هيوم " أول من أثار هذه المشكلة المنطقية، لقد أكدت هذه الثورات العلمية سواء في مجال الرياضيات، أو في مجال الفيزياء النظرية إلى جملة من النتائج كان لها انعكاس على طبيعة العلم المعاصر.

وأهم هذه النتائج أن مجال العلم المعاصر أساسه اللانظام، والفوضى، والتعددية، واللاسلطة، وهذا ما يتعارض مع القواعد والمعايير والمبادئ الثابتة التي يقوم عليها المنهج بمفهومه الكلاسيكي، فالمنهج العلمي يتغير من حقبة تاريخية إلى أخرى، وليس هو الحقيقة الثابتة، ولهذا كانت العقلانية المعاصرة عقلانية "ضد المنهج" فكل شيء قابل للنقد والمراجعة، فليس هناك حقائق مطلقة ومبادئ ثابتة أو أنساق نهائية، وقد تجلى ذلك مع ظهور النزعة النسباوية بدءا من "توماس كون" مرورا ب"إيمري لاكاتوس"،و وصولا إلى "بول فيرابند"، هذا الأخير الذي قدم مقاربة إبستميولوجية تعد من أجرإ التنظيرات الإبستميولوجية التي عرفها القرن العشرين، وهنا تتموضع الإبستيمولوجيا الفوضوية، لتكون أحد أبرز عناوين مابعد الحداثة في توجهه النقدي الإبستيمولوجي في مجال فلسفة العلم.

تعد هذه الورقة البحثية محاولة لتسليط الضوء على أحد الأركان الأساسية التي قامت عليها العقلانية العلمية المعاصرة، متمثلة في "الفوضوية الإبستميولوجية" التي قدمها "كارل بول فيرابند" (1924-1994) K.p.feyrabend، أحد أبرز فلاسفة العلم المعاصرين الذين قدموا قراءة جديدة لفلسفة العلم، اتسمت بالطابع الهجومي على كل الأنماط والنظريات والمناهج العلمية السابقة

في حقل العلم وفلسفته، ما جعله يلقب بالعديد من الألقاب، فقد لقب "بفيلسوف العلم الثائر" وب"الفوضوي" وب"النسباوي" وب"اللاعقلاني المتطرف"، بسبب موقفه المناهض لجميع النظريات العقلانية الحديثة والمعاصرة، فهل العلم مشروع يقوم على قواعد وأسس عقلانية أم أنه مشروع فوضوي يقوم على اللانظام واللا إتساق ؟ هل الفوضوية الإبستيمولوجية دعوة مناهضة للعقل والتفكير العقلاني أم أنها دعوة إلى عقلانية علمية جديدة ؟

ولمعرفة هذا التوجه سوف نوضح بالتحليل الرؤية النقدية الفلسفية التي صاغها "بول فيرابند".

2-المنطلق النقدي للمشروع الفوضوي:

تعد الميتودولوجيا من المواضيع التي خضعت للمساءلة النقدية، فكانت موضوع نقاش حاد بين التيارات الإبستيمولوجية التي تقاسمت إرثا فلسفيا وعلميا واحدا، لكنها إختلفت في مقارباتها للعلم والمنهج العلمي، ومكانتها داخل نسيج الحضارة المعاصرة.

وتعد الاطروحة التي قدمها "فيرابند" واحدة من أجرإ الأطروحات التي قامت بمراجعة المنهج العلمي، فماهي المنطلقات النقدية التي اعتمدها "فيرابند" في إبستيمولوجيته الفوضوية كأساس لإعادة قراءة المشروع العلمي؟

2-1-نقد الوضعية المنطقية:

حرصت الوضعية المنطقية على تحليل المعرفة الإنسانية وحصرتها في المعرفة العلمية وفقط ، وحاولت توحيد العلم وتحريره من أي نوازغ ميتافيزيقية ضمن مشروع "العلم الأوحد"، فاعتبرت العلم نظاما شاملا مبني عل أسس منطقية متسقة ومنسجمة فيما بينها وخاضع لقواعد ثابتة ومضبوطة، إلا أن "فيرابند" انتقد هذا التصور، واعتبر أن العلم مشروع يقوم عل اللا إتساق والتعقيد وتحكمه مؤثرات أخرى غير موضوعية تجعله مليئا بالتناقضات (فيرابند ،2005،ص392) ،وقد استنتج "فيرابند" ذلك من خلال الإستقساء التاريخي للعلم ، مؤكدا أن العلم غير مقيد بمنهج علمي محدد، فاتباع قواعد معينة والإلتزام بها في الممارسة العلمية يعيق التقدم العلمي خاصة "إن فكرة المنهج التي تحتوي على مبادئ صارمة لإدارة العملية العلمية تلاقي صعوبة كبيرة عندما تواجه نتائج الأبحاث التاريخية" (فيرابند،2005،ص33)، وهنا ينتقد الوضعية المنطقية في طرحها اللا تاريخي، حيث غيبت الأطر التاريحية المحيطة بالمعرفة العلمية واهتمت فقط بمنطق تبرير النظرية العلمية، في حين أنه لا يمكن إختزال العلم في إطار التبرير، وفي هذا السياق انتقد "فيرابند"فكرة التمييز بين سياق الكشف وسياق التبرير، وذهب إلى القول بأن "التمييز بين الكشف والتبرير، في الواقع، غير حقيقي على الإطلاق، فلا يمكن أن يكون الكشف مجرد خبط عشوائي، أو حلم، وإنما يدخل فيه الكثير من عناصر الإستدلال، كما أن التبرير لا يكون أبدا إجراءا موضوعيا تاما، فهو يحتوي على العديد من العناصر الذاتية (فيرابند،1997، ص217).

فالممارسة العلمية التي تقوم على سياق التبرير لا تخلو من مفاهيم وفروض غامضة كما أنها لا يمكن أن تكون موضوعية خالصة، بل تنطوي على العديد من العناصر الذاتية وهذا يدخل ضمن سياق الكشف، لذا لايوجد حد فاصل بين سياق الكشف وسياق التبرير.

2-2 - نقد القابلية للتكذيب عند بوبر:

كان "فيرابند" في بداية مشواره متأثرا ب"كارل بوبر" (1902-1994) K.popperالذي كان يؤمن أن ليس هناك طريق ملكي للنجاح، بل نحن نتعلم بالمحاولة والخطأ، غير أنه سرعان ما تحول من مناصر "لبوبر" إلى خصم له (الخولي، 2000، ص 425)، ويظهر هذا التأثر جليا من خلال النقد الذي وجهه "بوبر" للوضعية المنطقية والمنهج الاستقرائي، حيث أولت العقلانية النقدية البوبرية أو ما عرف بمنطق الكشف العلمي اهتماما بالغا للنقد، وذلك من خلال فكرة التفتح على كل الإقتراحات الممكنة لحل المشكلات العلمية، حيث عبر "بوبر" عن ذلك بقوله: "نحن بحاجة إلى الأخرين لوضع أفكارنا موضع اختبار لنكشف أي من بين أفكارنا هي الصحيحة" (مذبوح ، 2011، ص 17)، إن هذا التصور يماثل ما وجدناه من أفكار عند "فيرابند"، فهو يدعو بدوره للتفتح على جميع التقاليد وإتاحة الفرصة للجميع للمشاركة في تطور ونمو العلم، وأول إجراء منهجي ينطلق منه "بوبر" هو نزع الحصانة عن النظريات العلمية، مهما كانت المبادئ أو القواعد التي تقوم عليها لأنها لا يمكن أن تكون مصدرا لليقين، "و شروط المعرفة الموضوعية العلمية تجعل من المحتم بقاء كل فرض علمي ضرورة وأبدا، معطى على سبيل المحاولة" (مذبوح، 2002، ص 71)، فالمعرفة الموضوعية عند "بوبر" تتطلب هجران اليقين لأنه مطلب مستحيل التحقق موضوعيا.

لكن هذا الإنهار الذي أبداه "فيرابند" لفلسفة "بوبر"، لم يستمر طويلا وتحول إلى دحض معتبرا أن منهجه ساذج وفلسفته دوغمائية.

فالكثير من النظريات لا تقبل التكذيب بالطريقة التي يصفها "بوبر" (فيرابند، 1997، ص 19)، ويسترشد "فيرابند" بتاريخ العلم ليؤكد عدم جدوى التفنيد البوبري، وذلك من خلال انتهاك "غاليلي" (1564-1642) G.Galilei لتكذيبات النظرية الكوبرنيكية... فالنظريات العلمية لا تتطور عن طريق التكذيب (حمدان، 2013-2014، ص 73)، فالتكذيب الصارم يقضي على العلم ولا يسمح له بالإنطلاق (فيرابند، 2005، ص 264).

بناءا على ما سبق، وقف "فيرابند" موقف الناقد للعقلانية النقدية واصفا إياها بأنها مجرد تخمينات وهمية، وأن المعايير التي قدمها "بوبر" ليست لها أية قيمة أو فائدة بالنسبة للعلم، معتبرا تكذيبيته مظللة ومتناقضة حتى مع تاريخ العلم، "لا يمكن لمنهج التخمين والتنفيذ أن يتغلب على الصعوبات التي تواجه المذهب الإستقرائي، فليس ثمة منهج واحد يصلح في جميع الأحوال " (محمد، 1996، ص 123).

يريد "فيرابند" من خلال ذلك تبيان أن المعرفة لا يمكنها أن تنحصر في منهج معين ، بل أنها أنواع وأشكال وهي نسبية وليست مطلقة، كا أن المعرفة العلمية هي بعيدة عن مجرد التخمينات والتفنيدات، لأن التاريخ يعلمنا أن العلماء يتجاهلون الشذوذ أو الحالات غير متوقعة وحالات التفنيد أو التكذيب، وإن وجدت فهي حالات شاذة بالنسبة للعلم، لا يمكنها أن تؤدي إلى رفض النظرية العلمية، فليس مجرد وجود شاهد سلبي نرفض النظرية بأكملها.

يواصل "فيرابند"نقده "لبوبر" مؤكدا أن قواعد "بوبر" المنهجية لا تساهم في تقدم العلم وإنما تعيقه لأن القول بمبدأ الدحض الصارم يمحو العلم ولن يسمح له بالإنطلاق (فيرلبند ،2000، ص264).

بناءا على ماتقدم يهاجم "فيرابند" المنهج العلمي مهما كانت صيغته ويصر على أن كل القواعد المنهجية التي يتبعها فلاسفة العلم سواء أكان الإستقرائيون أم التكذيبيون ، تتعارض تماما مع مصلحة العلم ، مؤكدا أن هذه الأسس لاتبني العلم بل تشكل أسباب تأزمه وانغلاقه.

2-3- نقد إشكالية تطور العلم عند "توماس كون":

كما كان "لتوماس كون" (1922-1979) T.cohn أثرا عميقا على "فيرابند" لاسيما في فكرة اللامقايسة، إن معنى اللامقايسة عند "توماس كون" تعني اللاعقلاني، وقد جاء في كتابه بنية الثورات العلمية قوله: "إن منشأ الإختلاف بين المدارس العلمية، ليس فشل واحدة منها أو أخرى في المنهج المتبع-فجميعها علمية- بل منشؤه طرف اللامقايسة في رؤية العالم وفي ممارسة العلم فيه (كون، 2007، ص 33)، فمفهوم اللامقايسة عند "توماس كون" يشتق مضمونه من خلال ما حصل في تطور العلم الثوري، وهذا ما وضحه قائلا : "عندما تتغير النماذج الإرشادية يتغير العالم ذاته، وانقيادا للنماذج الإرشادية الجديدة، يتبنى العلماء أدوات جديدة ويتطلعون بأبصارهم صوب اتجاهات جديدة (كون، 2007، ص 150)، يعني أن الثورات العلمية ينتج عنها تغيرات وتحولات في النظر إلى العلم وهي تحدث نتيجة الإنتقال من نموذج استنباطي إلى آخر وليس مجرد نتيجة للحذف المنطقي للأخطاء.

المقصود بالثورات العلمية سلسلة من الأحداث التطورية غير التراكمية، وفيها يحل نموذج إرشادي جديد محل نموذج إرشادي قديم، لأن هذا الأخير أصبح عاجزا عن إيجاد حلول للمشكلات القائمة أو الحاضرة، فتاريخ العلم يؤكد أن الكثير من المعارف العلمية السابقة تتناقض مع المعارف العلمية الجديدة، سواء تعلق الأمر بالفلك أو الفيزياء أو الرياضيات... الخ (كون،2007، ص 131)، بفضل هذه النظريات وغيرها تم تجاوز أو تهديم التصور التقليدي للعلوم المبني على الثبات المطلق للمعارف العلمية، ولقد تحدثت "الخولي" عن هذا المصطلح بعبارات واضحة مبينة معناه في فلسفة "توماس كون" فاللامقايسة هي "عدم قابلية النظريات العلمية للقياس المتكافئ للحكم عليها بالمقاييس نفسها، وتقييمها بالمعايير نفسها. لكل

نظرية إطارها ومفاهيمها وعالمها، حتى أن الحوار بين نظريتين في مرحلتين مختلفتين أي نموذجين إرشاديين متعاقبين هو بمنزلة حوار بين الصم حيث لن يسمع أحدهم الأخر (الخولي، 2000، ص 418) ، هذه الفكرة أثرت بقوة على فلسفة "فيرابند" حيث اعتبرها أساس التقدم العلمي، إلا أنه يرفض فكرة النموذج الإرشادي عند "كون"، لأنه يحصر النشاط العلمي في إطار نموذج واحد مما يحد من حرية الباحث ويعرقل الحركة التطورية للعلم، لذلك رفض "فيرابند" تعددية "كون" للنماذج الإرشادية التي سرعان ما تتوحد على الإجماع والاستقطاب باتجاه قبول نموذج إرشادي واحد (هواري، 2017-2018، ص 155).

2-4- نقد الميتودولوجيا البحثية عند إمري لاكاتوس:

يؤكد "فيرابند على أهمية فلسفة "إمري لاكاتوس" (1922-1974) I.Lakatos فهو يقر بايجابيتها ومدى تأثره بها، فيقول : "ينتقد لاكاتوس المناهج الموجودة ويصل إلى نتيجة تتطابق تقريبا مع نتيجتي...و هو أحد المفكرين القليلين الذين لاحظوا الهوة الشاسعة الموجودة بين الصور المتعددة للعلم والشيء الحقيقي وأدرك كذلك أن محاولة إصلاح العلوم عن طريق تقريبها إلى الصورة سوف تفسدها أو حتى تحطمها، وأنا أتفق تماما مع هذه النتيجة (فيرابند، 2005، ص 277)، لكن هذا الإتفاق سرعان ما واجهه "فيرابند" بالنقد والتمحيص، حيث يرفض كل محاولة إبستيمولوجية وكل ميتودولوجيا تسعى إلى بناء نظرية تستهدف عقلنة الممارسة العلمية، فالعلم في نظر "فيرابند" لا يمكنه أن يتقيد بالأطر العقلانية التي فرضتها الميتودولوجيات المعاصرة بما فيها "برامج البحث العلمي" بل هو نشاط ومغامرة ذهنية متحررة تتجاوز كل الحدود ولا تخضع لأي قواعد حتى ولو كانت قواعد منطق (فيرابند، 2005، ص 275).

كانت هذه مجمل المنطلقات والأسس التي إعتمد عليها "فيرابند" في بناء نظريته الفوضوية لتطور العلم وتقدمه، مانستخلصه مما سبق أن "فيرابند"يقف ضد كل ممارسة تحاول حصر المشروع العلمي وفق مبادئ منطقية أو تجريبية تحد الفكر الإنساني، فلا وجود لمعايير تميز بين العلم واللاعلم، وبالتالي لا يمكن استبعاد أي معرفة مهما كانت الحجج المنطقية التي تبطلها، ولا يمنك اعتماد أي منهج من شأنه أن يقيد الممارسة العلمية.

3- الفوضوية الإبستيمولوجية عند بول فيرابند:

تعد الفوضوية الإبستيمولوجية التي طرحها "فيرابند" خلال القرن العشرين من الأنساق الإبستيمولوجية المناهضة للنظريات العقلانية الحديثة والمعاصرة ، وهو بذلك يؤسس لمفاهيم جديدة لم تعرفها فلسفة العلم من قبل.

1-3- في معنى الفوضوية الإبستمولوجية:

مصطلح مشتق من الكلمة اليونانية (avapxia) (علي ، 1990، ص 276) ، وتعني الترجمة الحرفية للفظ : اللاسلطة أو اللانظام أو بمعنى لاحكومة (فرانك ، 2004، ص 25) ، وهي مذهب يناهض قيام الحكومات، ويدعو إلى إنشاء مؤسسات إجتماعية وإقتصادية بمحض إختيار وإرادتهم الحرة، أما في الموسوعة الفلسفية عند "لالاند" فيشير أن الفوضوية مذهب سياسي تكمن سمته المشتركة في رفض كل نظام دولة ، يفرض نفسه على الأفراد من فوق (أندريه ، 1966، ص68) ،فهي تدعو إلى تأسيس مجتمع حر غير خاضع لهياكل الدولة، لأنها تقمع حرية الأفراد، فكل طاعة للدولة هي خضوع لقوانينها وانقياد لها، لذا فإن الدولة هي أكبر أعداء حرية الفرد.

انتشرت هذه النظرية بشكل واضح في القرن العشرين، لدرجة أن البعض ذهب إلى القول بأن "القرن العشرين سيذكر بسبب ثلاث أشياء: النظرية النسبية والفيزياء الكمومية ونظرية الفوضى، التي اعتبروها الثورة العلمية الثالثة في تاريخ علم الفيزياء (جيمس،2008،ص19)، فإذا كانت النسبية قد حطمت مطلقية الزمان والمكان، وأسقطت نظرية

الكوانتم فكرة القياس الدقيق والمضمون، فإن النظرية الفوضوية قد أزاحت التنبؤات القاطعة التي عبر عنها "لابلاس" من خلال مبدأ الحتمية.

نجد أن هذا المصطلح يعتبر أساسيا في فلسفة "فيرابند" ، حيث حوله من الحقل السياسي إلى مجال الإبستيمولوجيا ، ليجعل منه أساسا لفهم العلم، وهو بذلك يقدم تصورا جديدا مناهضا للميتودولوجيات الكلاسيكية، فقد لا تكون الفوضوية أكثر الفلسفات السياسية جاذبية وإغراءا، إلا أنها تعد دواءا أمثل وأكثر فعالية لمشكلات الإبستيمولوجيا وفلسفة العلوم (فيرابند، 2005،ص23)، القائمة على تقبل كل شيء ولا تعترف إلا بالمبدأ القائل "كل شيء جائز" ، هذا المبدأ الذي اعتبره "فيرابند" المبدأ الوحيد الذي لا يكبح تقدم العلم، بيد أنه ليس المبدأ الأوحد لمنهجية جديدة أوصى بها وإنما هو الوسيلة الوحيدة لفهم التاريخ على حقيقته، فكل الميتودولوجيات تعرقل العلم، في حين أن المبدأ الوحيد الذي لا يعيق التقدم العلمي هو المبدأ الذي نادى به "فيرابند"، ليجعل العلم كيانا منفتحا على كل المناهج وجميع المعارف الإنسانية، فكل شيئ حسن ومقبول.

على هذا الأساس فإن الفوضوية الإبستيمولوجية هي اتجاه مناهض للنزعة الإستقرائية والعقلانية النقدية البوبرية ، ولا يعني مصطلح " الفوضوية" الفوضى أو العشوائية ، وإنما المعنى الذي أراده " فيرابند " هو عدم الخضوع والتقيد بقوانين العقل ومعايير العقلانية ، فليس هناك حسب " فيرابند" قواعد ثابتة أو معايير محددة تحدد مسيرة العلم ، " فكل القواعد التي يدافع عنها علماء وفلاسفة العلم باعتبارها شكلا تنظيميا للمنهج التعليمي إما عديمة النفع. .. أو ضعيفة" (فيرابند، 2000 ، ص 113) ، فالعلم لا يؤسس على منهجية صارمة بقدر ما يتقدم من خلال الفوضى واللاعقلانية، فهو يؤكد قائلا : "العلم أساسا عمل فوضي ، والفوضوية النظرية أكثر إنسانية من العلم ، ومن المرجح أنها تشجع التقدم أكثر من البدائل المنهجية المتمثلة في القانون والنظام" (فيرابند ، 2005 ص 21) ، فالفوضوية الإبستيمولوجة عند " فيرابند " ترفض المنهج الواحد ، وتفتح المجال أمام كل المشاريع في ميدان العلم ، تحت شعار " كل شيء ماشي") (anything goes ، "فإذا كنت لا تستطيع أن تعيش بدون مبادئ تحكم العالم.

عندئذ يمكن أن أعطيك هذا المبدأ ، فقد يكون فارغا وغير مفيد ، بل وسخيف لكنه على كل حال مبدأ " (فيرابند ، 2000 ، ص55) وهو بحسب تعبيره المبدأ الوحيد الذي يقبله والذي لا يعوق تقدم العلم.

بناءا على هذا نجد أن " فيرابند" قدم نظرة جديدة لتاريخ العلم من منطلق فوضوي ، إذ يقول : " إن الفوضوية ليست فقط ممكنة ، لكنها ضرورية لتطور العلم ، ولتقدم الثقافة على حد سواء " (فيرابند ، 2005، ص 39).

2-3- من وحدة المنهج إلى التعددية المنهجية:

عمل " فيرابند على تقويض كل ما هو مطلق في المعرفة الإنسانية بما فيها المعرفة العلمية ، فرفض المنهج الصارم واعتبره معيقا للتقدم العلمي ، " فكل القواعد التي يدافع عنها علماء وفلاسفة العلم باعتبارها شكلا تنظيميا للمنهج العلمي إما عديمة النفع. ..أو ضعيفة" (فيرابند ،2000، ص 113) ، وهذا راجع إلى ميزة الميتودولجيات التقليدية ، التي نادت بوجود منهج وحيد لتقدم العلم وتطوره، فهو يرفض كل الميتودولوجيات السابقة، لاسيما الوضعية المنطقية ومنطق الكشف العلمي البوبري ، وأطروحات "توماس كون "و " إمري لاكاتوس " ، وسبب دحضه لهذه الميتودولوجيات الكلاسيكية والمعاصرة ، أنها سلمت بمسلمة خاطئة ، وهي الإعتقاد بوجود منهج وحيد ينبغي الإلتزام به في الممارسة العلمية ، وهذا إعتقاد باطل، حيث يقول "فيرابند" : " إن فكرة وجود منهج ينطوي على مبادئ صارمة وثابتة تحكم مسيرة العلم ، تواجهها صعوبات جمة عند مجابهتها بنتائج البحث التاريخي ، إذ أنه ليس ثمة قاعدة واحدة مهما كانت مؤسسة وراسخة في حقل

الإبستيمولوجيا... إن الأحداث الهامة والتطورات الكبرى ، كإبداع المذهب الذري القديم والثورة الكوبرنيكية ، وظهور المذهب الذري الحديث والنشوء المتدرج للميكانيكا الموجية للضوء ، لم تكن لترى النور لولا أن بعض العلماء والمفكرين قد قرروا أن لا يلتزموا بقواعد محددة وثابتة" (20م ، 1979 ،feyrabend) ، على هذا الأساس يعارض "فيرابند" كل الميتودولوجيات التي عرفتها فلسفة العلم التي تفرض وجود معايير وقواعد ثابتة كلية، ذلك بسيطرة المنهج الواحد حسب "فيرابند" قد تؤدي إلى تقليص مساحة العلم ،وخنق القدرات العقلية ، وكبح قوة الخيال والحد من القدرات الإبداعية.

هدف "فيرابند" من التعددية المنهجية الحث على المنافسة بين نظريات العلم، فخير اختبار للنظرية العلمية أن تتنافس مع النظريات الأخرى القوية في إطار مناهج متعددة ، حيث يقول :" نحن الآن مضطرون إلى ممارسة العلم بدون أن تكون لدينا قدرة على الركوع إلى أي منهج محدد تماما، وراسخ تمام الرسوخ " (فيرابند، 2000، ص 100)، بكل إصرار ينفي "فيرابند" أن يكون للعلم منهج واحد فهي دعوة منه إلى العلماء بعدم الوقوع أسرى لتلك المناهج، فوحدة المنهج تؤدي إلى كبح الخيال،

و إعاقة تطور العلم، عكس التعددية المنهجية التي من شأنها أن تساهم في تقدم العلم، فكل المناهج مقبولة مادامت تفي بالغرض.

3-3- اللامقايسة:

هي نوع من القطيعة المعرفية التي تعني عدم قابلية النظرية العلمية القديمة للمقايسة مع النظرية العلمية الجديدة، فالقطيعة المعرفية هنا تعني الإنفصال بين القديم والحديث (قطب، 2001، ص 90) وينطلق "فيرابند" في تصوره للمقايسة، من أن التقدم العلمي يتمثل في إزاحت النظريات القائمة لتحل محلها نظريات جديدة. ما يحيلنا مباشرة إلى أن اللامقايسة عند "فيرابند"

تتمثل في "عدم إمكان إجراء مقارنة بين بعض النظريات العلمية إرتكازا إلى الخبرة لأنها تتوقف على النظرية، أو إتكازا إلى قواعد المنطق التي هي نسبية تماما، ولا تتفق مع الممارسة العلمية" (عادل،2004، ص 55) ، "فيرابند" يرى أن نقد نظرية ما يجب أن يكون بواسطة نظرية أو نظريات أخرى وليس من الداخل، ويمكن لهذه النظريات البديلة أن تكون موافقة للنظرية موضوع البحث أي تعزز.

وقد وضح ذلك في كتابه "ثلاث محاورات في المعرفة" : " هي عدم إمكانية المقارنة بين المعارف المتتابعة التي تنتمي إلى نماذج مختلفة، فالمراحل التي يمر بها العلم تخاطب مشكلات مختلفة، فالمشكلة تعالج في إطار النموذج، ولا وجود لمقاييس مشتركة لقياس نجاحها" (فيرابند،1997، ص 17).

انطلق "فيرابند"في دراسته للاقياسية من خلال إكتشافه أن دلالة المفاهيم وتأويلها ومنطوقات الملاحظة التي تستخدم هذه المفاهيم يتوقفان على السياق النظري الذي يظهران فيه، فمعنى عبارة الملاحظة يتوقف على النظرية التي تفسر ما نلاحظه، فيقول: " الإنتقال من نظرية علمية إلى أخرى يؤدي إلى تغيرات جذرية فيما يمكن ملاحظته وفي معاني المصطلحات المستخدمة"(عادل، د.ت، ص 313)، يعني هذا أن الأساس الذي تستند عليه النظريات المختلفة ليس أساسا ثابتا في المعنى، فثبات المعنى يحيل إلى الركود والجمود وهذا ما يتنافى مع ما يدعو إليه "فيرابند" من تنوع وتغير، ومن بين الأمثلة التي يفضلها "فيرابند" لإظهار "اللامقايسة" هي : اللامقايسة الحاصلة بين الميكانيكا الكلاسيكية والميكانيكا النسبية فالميكانيكا الكلاسيكية تصف الكون ومكوناته الطبيعية القابلة للمشاهدة وتلك غير القابلة للمشاهدة، يضعها جميعا في إطار عدة مقولات. فالأجسام الطبيعية وفق تصور الميكانيكا الكلاسيكية تمتلك شكلا وكتلة وحجما، وجميعها تعد خواصا

جوهرية ومتأصلة، وتحضى بثبات عال في الأجسام الطبيعية ولا تتغير إلا إثر تفاعل فيزيائي متبادل، بل إنها متغيرة وفق تغير نظام العلاقات الحركية بين الأجسام ومراجع الإسناد من دون الحاجة إلى تفاعل فيزيائي ملحوظ لتغيرها فقط بالإنتقال من مرجع إسناد إلى أخر " (موسى، 2012، ص 375)، فالمعنى الذي تحيل إليه الموضوعات الفيزيائية في الميكانيكا الكلاسيكية له معنى ودلالة مغايرة في الميكانيكا النسبية، وعليه فان كل من النظريتين لا تقبلان المقايسة، وهذا لا يعني إستحالة المقارنة بينها فهناك إحدى الوسائل الكفيلة بإجراء هذه المقارنة، وهي مواجهة إحداهما بالأخرى في سلسلة الأوضاع القابلة للملاحظة مسجلين درجة توافق كل منهما مع هذه الأوضاع وترجمة هذه الدرجة وفق الحدود الخاصة بكل منهما.

3-4-النسباوية:

إن الثورات العلمية ومالزم عنها من تحولات حاسمة أفضت إلى زعزعة الأطر النظرية والمنهجية، التي شكلت الدعامة الأساسية لقيام العلم الكلاسيكي، رافقتها حركات نقدية لكل المبادئ والمفاهيم التي كرس لها العلم الحداثي، مما ولد تغيرات جذرية في المنظومة العلمية.

كل هذه التحولات جعلتنا أمام قوانين غير صارمة وغير مضبوطة، بل أصبحنا نتحدث عن متغيرات نسبية، وأصبحت المعرفة العلمية توصف بأنها نسبية، وهذا ما ولد تصورا جديدا حول المعرفة العلمية ولعل هذا التصور تجسد مع فلاسفة العلم المعاصرين الذين دعوا إلى المعرفة النسبية القائمة على التعدد المعرفي، فلقد أكد "فيرابند" على نسبية المعرفة التي رأى فيها نزوعا إنسانيا، حيث يقول : "لقد كنت أنا نسبيا، على الأقل بأحد المعاني العديدة لهذه الكلمة، ولكني الآن أعتبر المذهب النسبي اقترابا إنسانيا من وجهة نظر أفضل" (فيرابند، 1997،ص232)، وقد إستند "فيرابند" إلى تاريخ العلم، ليوضح ذلك من خلال أن المعرفة العلمية خضعت لجملة من التحولات التاريخية وهي وليدة لها، لذا فإنها تتغير من لحظة تاريخية إلى أخرى، وبالتالي تصبح المعرفة العلمية نسبية إستنادا إلى تاريخيتها.

فالمفاهيم التي يعتقد أنها أساسية في البناء العلمي كالموضوعية والعقلانية والمنهج هي مفاهيم نسبية بحكم تغيرها من نموذج إلى آخر، ومن نظرية إلى أخرى، ويبدو أن "فيرابند" يوافق "غاستون باشلار" في الإعتقاد بأن النظريات العلمية ليست مكتملة البناء، بل هي في تغير دائم، استنادا إلى طابعها التاريخي، وإلى جملة التحولات والتغيرات التي تطرأ عليها، فلا يمكن الحديث عن معارف أو حقائق مطلقة ، بما فيها الحقيقة العلمية،

4. حدود المقاربة الإبستيمولوجية الفوضوية:

بالرغم من أن الرؤية النقدية الفلسفية التي صاغها "فيرابند"تعتبر قراءة جديدة لفلسفة العلم، سايرت تيار مابعد الحداثة، الذي سعى إلى هدم وتقويض المعالم الأساسية للحداثة الغربية، وألغى الفكر المنغلق الذي ارتكز على مقولتي العقل والحقيقة المطلقة، واتجه إلى نقد كل الأبعاد التي قامت عليها الحداثة الغربية، ليشيد بذلك فكرا يقوم على الفوضى والإختلاف والتعدد في الخطابات الإجتماعية والدينية والثقافية، فقد اعتبرها البعض تحولا جديدا في مسار فلسفة العلم المعاصر مناهض لكل أشكال الدوغمائية التي طغت على البحث الإبستيمولوجي، ويتأسس على الوعي التاريخي بالعلم ذلك لأن "فيرابند" وضع المسمار الأخير في نعش النظرة اللا تاريخية للعلم، وبلغ الوعي التاريخي بالعلم معه انطلاقة لا تحدها حدود (الخولي، 2000، 420).

إلا أنها أثارت جدلا كبيرا في الوسط الفلسفي ، من منطلق أن كل فلسفات العلم قد خرجت بالمنهج العلمي الملائم للممارسة العلمية بعد نقدها للنظريات التي سبقتها، فمثلا "كارل بوبر" قدم مبدأ التكذيب بعد أن نقد مبدأ التحقق الوضعي ، و"توماس كون" قدم النموذج الإرشادي بعد أن نقد التكذيبية البوبرية ، و"إمري لاكاتوس" قدم ميتودولوجيا

برامج الأبحاث العلمية بعد أن نقد طرح "بوبر" وكون"، أما "فيرابند" لم يقدم بديلا معرفيا بعد أن طال نقد الجميع، والأمر الذي زاد في تعتيم الرؤية هو إقحامه لمختلف المعارف الإنسانية في القرارات العلمية بعد تمرده على العقلانية وتأكيده على حضور اللامعقول في العلم، فقد رفضها البعض لأنها اكتفت بهدم وتقويض العلم والعقلانية دون المساهمة في حل المشكلات النظرية والمنهجية التي يطرحها العلم المعاصر.

إن التعددية التي تبناها "فيرابند" انطلاقا من شعاره "كل شيئ حسن" تقضي إلى تعدد النظريات والمناهج التي تؤدي إلى خصوبة التفكير، وتمنح الفرصة لإظهار الإبداعات الإنسانية، هي أمر مبالغ فيه قد يعود إلى شكل من أشكال الدوغمائية، ويرى "فيرنر ديدريخ"أن " فيرابند في ظل نقده للميتودولوجيات المعيارية التي تقوم على مجموعة من القواعد الثابتة، لم يقدم لنا أي مضمون وصفي لما نعتبره المعيار الفاصل للعلم، حيث أن الدعوة لمبدأ "كل شيئ جائز" تعني الإنتهازية، وأن نقد "فيرابند" المدعم بطريقة تاريخية لا ينتهي إلى شيء" (قطب، 2018، ص195-196)، على الرغم من أن النزعة الفوضوية عند "فيرابند" كانت مناهضة لكل فكر إيديولوجي، إلا أنها وقعت هي الأخرى في قبضة الأيديولوجيا، حيث بنى "فيرابند" تصورا قائما على تجربة ذاتية مستمدة من ظروف سيكولوجية، ثقافية وسياسية مختلفة ساهمت في بلورة فكره الإبستيمولوجي الذي انطوى على عناصر إيديولوجية، سعى فيها إلى فرض تصوره على فلاسفة العلم والميتودولوجيا، وعلى المجتمع الإنساني في إطار مشروع "المجتمع الحر"، الذي بين فيه أن العلم مجرد إيديولوجيا من بين الإيديولوجيات المتعددة التي تفرضها الدولة على المجتمع، لهذا ينبغي فصل العلم عن الدولة.

5- خاتمة:

نستنتج مما سبق أن "فيرابند" قد مثل في فلسفة العلم حالة فريدة من خلال نقده لأسطورة العلم الحقيقي والمنهج العلمي، مؤسسا بذلك لنظرية جديدة في المعرفة وهي "الفوضية الإبستيمولوجية"، التي تعني عدم التقيد بقوانين العقل ومعايير العقلانية، والتفتح على كل الخيارات والبدائل النظرية والمنهجية، مؤكدا أن السؤال عن المنهج سؤال زائف من أساسه وأن العلم لم يكن أبدا أسير منهج واحد محدد بل هو مشروع حر لا يعترف بأي سلطة، وبحسب تعبيره المبدأ الوحيد الذي يقبله والذي لا يعوق تقدم العلم "كل شيء ماشي".

فالعلم حسب تصور "فيرابند" ليس شبكة من المعادلات الرياضية والعلاقات المنطقية ، بل هو نشاط إنساني متدفق تشارك فيه كل الفاعليات الإنسانية العقلية واللا عقلية، أي أن المناهج اللا عقلية يمكنها أن تفيد تقدم وتطور العلم.

وبهذا كانت "الفوضوية الإبستيمولوجية" اتجاه مناهض للصورة العقلانية القائمة على النظام والقانون والصدق والموضوعية وقوانين المنطق الكلاسيكي الجامدة.

خاض "فيرابند" معركة ضد الميتودولوجيات التي طرحها العديد من الفلاسفة قبله، التي تفترض قواعد خاصة في العمل، فقام بنقد القواعد المنهجية التي وضعها "بوبر"، لأنها لا تساهم في نمو المعارف وتطور البحث العلمي، وإنما تقوم بإعاقة هذا النمو وتعتبر هذه القواعد ليس لها فائدة في مجال العلوم، وحتى محاولة "توماس كون" لم تسلم من النقد، فقد إعتبرها "فيرابند" لا تخلو من السلطوية، فالتسلط العلمي يعيق النقد العلمي ويقوم بإقصاء التقاليد الإجتماعية الأخرى بحجة عدم تماشيها مع الإنجازات العلمية داخل النموذج الإرشادي الجديد، وحتى ميتودولوجيات برامج البحث "لامري لاكاتوس"، التي دافعت عن العقل والعقلانية والموضوعية واعتبرت العلم أرقى أشكال المعرفة الإنسانية وضعها "فيرابند" تحت مجهر النقد من منطلق أنها مجرد تقييم نظري يفتقر للعمل والتوجيه الميداني، ولا تعطي قواعد للإختيار لصالح نظرية أو برنامج ما.

على هذا الأساس فإن الفوضوية الإبستيمولوجية مشروع إبستيمولوجي مناهج للعقلانية العلمية الغربية القائمة على مسلمة مفادها أن العلم الغربي هو وحده دون غيره القادر على اكتشاف الطبيعة والسيطرة عليها، وأنه المقيم أو المعيار الوحيد للحضارات.

6- قائمة المصادر والمراجع:

paul , F.(1979). Contre la methode esquisse d ' une theorie anarchiste de la connaissance tr. de l 'anglais par Baudouin jurdant et Agnés schlumberger ,editions du seuil.

أحمد أنور. (1996). ضد المنهج إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة. سلسلة الفلسفة والعلم. علي عبد المعطي وآخرون. قضايا العلوم الإنسانية. إشكالية المنهج. الهيئة العامة لقصور الثقافة. القاهرة.

بول فيرابند. (1997). ثلاث محاورات في المعرفة. تر محمد أحمد السيد. دار المعرفة الجامعية الإسكندرية.

بول فيرابند. (2005). ضد المنهج. ترماهر عبد القادر محمد علي. طبعة للطالب الإسكندرية.

بول فيرابند. (2000). العلم في المجتمع الحر. تر السيد نفادي وسمير حنا صادق. المجلس الأعلى للثقافة. مصر.

بوصالحيح حمدان. (بلا تاريخ). العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها بول فيرابند أنموذجا أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه علوم في الفلسفة. جامعة وهران 2. كلية العلوم الإجتماعية. قسم الفلسفة. السنة الجامعية 2013 - 2014

بيلي فرانك. (2004). معجم بيلاكويل للعلوم السياسية. تر ونشر مركز الخليج للأبحاث.

توماس كون. (2007). بنية الثورات العلمية. ترد. حيدر حاج اسماعيل ومراجعة محمد دبس. دار النشر المنظمة العربية للترجمة. بيروت.

جيمس غليك. (2008). نظرية الفوضى علم اللامتوقع. تر. أحمد مغربي. دار الساقي. بيروت. لبنان.

خالد قطب. (2001). منطق التقدم العلمي. دار قباء القاهرة.

خالد قطب. (2018). أنسنة العلم مقال جديد في العقلانية العلمية. دار نيو بوك. القاهرة. مصر.

عادل عوض. (بلا تاريخ). منظور النظرية المعاصرة وعلاقتها مع الواقع التجريبي. منشأة المعارف الإسكندرية.

عادل عوض. (2004). الإبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.

علي نور. (1990). قاموس عربي يوناني. مكتبة لبنان. بيروت.

لخضر مذبوح. (2002). فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر (رسالة دكتوراه غير منشورة) جامعة منتوري قسنطينة.

لخضر مذبوح. (2011). فلسفة كارل بوبر. دار الألمعية للنشر والتوزيع. الجزائر.

لالاند أندريه. (1996). الموسوعة الفلسفية المجلد الأول. تعريب خليل أحمد خليل. تعهد وأشرف عليه حسرا. أحمد عويدات. منشورات عويدات. بيروت. باريس.

موسى كريم. (2012). فلسفة العلم من العقلانية إلى اللاعقلانية. دار العزابي. بيروت. لبنان.

محمد أحمد السيد. (1996). التمييز بين العلم واللاعلم. منشأة المعارف. الإسكندرية.

هواري شاذلي.(بلا تاريخ). فلسفة اللامعقول عند فيرابند. دراسة تحليلية نقدية. أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه علوم في الفلسفة. جامعة وهران 2. كلية العلوم الاجتماعية. قسم الفلسفة. السنة الجامعية 2017-2018.

يمنى طريف الخولي. (2000). فلسفة العلم في القرن العشرين (الأصول - الحصاد- الافاق المستقبلية). سلسلة عالم المعرفة. الكويت.